لاروشفوكولد ـ ليوباردى ـ شوبنهور[1]

ـ ١ ـ

إن علم النفس من العلوم الحديثة، ولكن وصف النفس الإنسانية ومحاولة كشف مجاهلها ومخبآتها أمر قديم عالجه الشعراء والكتَّاب فى كل قوم، ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات والنظرات التى بلغها سيجموند فرويد وأمثاله، وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص فى الصراحة. ولانظن أن أديبًا أو مفكرًا أعفى النفس الإنسانية من تطلعه إلى غرائب أمورها أو الأمور المألوفة التى هى فى منزلة الغرائب لانزوائها فى ظلمات النسيان كلما رأت النفس فى ذلك النسيان مأربًا لها، ولكن نفعها بتذكيرها علم وفهم. ولعلَّ بعض ذوى الفهم والزكانة، يرى فى فهم النفس فى نزعاتها وخواطرها، سبيل رقيها وتخلصها من شوائبها، وربما غالوا فى أثر الفهم فى العاطفة والنزعة والطبع وأملوا منه أكثر مما يستطاع جنيه من ثمرات أثر لطف الفهم فى لطافة الحس والنفس ورقتهما. ولكن ما لاريب فيه أنَّ جهل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحانى، وهو مصدر شر فى ذاته بما يؤدى إليه من بلادة الطبع والإمعان فى قسوته والاسترسال فى حمقه. ومن الأدباء المفكرين الذين لهم نصيب من بحث النفس ـ على سبيل التفكير والتأمل لاعلى طريقة القصص فى التصوير ـ لاروشفوكولد النبيل الفرنسى، وليوباردى النبيل الإيطالى، وشوبنهور الفيلسوف الألمانى، ولكل منهم نظرات صائبة، وكانت فى حياة كل منهم عوامل أدت إلى التفكير فى النفس والصراحة فى القول وإلى الإلمام بمكنونات النفوس ومعروضاتها من غرائز ونزعات وصفات، فقد سخط الأول على حكومة أمته

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٧.

وضرب بسهم فى حرب الفروند، وجرح فى حصار باريس، ونُفى إلى الريف. فكان عائشًا بين المؤتمرين، وخالط أناسًا من طبائع مختلفة ودرس أطماعهم وأطماع نفسه. ولعلّ نفيه إلى الريف أعطاه فرصة وفراغًا كى يعيد على فكره ما وعاه من طبائع الناس فى حياته العملية وما وصل إلى علمه من حيَل رجال القصر الملكى ونسائه ودسائسهم وحبهم وبغضهم وحبهنّ وبغضهنّ. وكل ذلك كان مادّة يستمد منها نظراته. أمّا الثانى وهو ليوباردى فقط كان معاصرًا لشوبنهور ومات قبله ولو أنه كان أصغر منه سنا، وكان من أسرة نبيلة فقيرة. وقد أنهك نفسه وجنى على صحته بالإسراف فى القراءة والاطلاع حتى صار يعد حجة فى الأدب على حداثة سنه، وقد سمح له أبوه بعد تمنع شديد وتأب كثير أن يرحل إلى المدن الإيطالية الكبيرة، وأن يُعاشر الناس. ولم تكن إيطاليا قد وحّدت بعد، بل كانت تتحكم فى دويلاتها حكومات رجعية تشجع التجسس والدسائس والتلفيق. فبدا له ما يبدو للرجل المفرط فى الفطانة من طبائع الناس؛ لأنه درس نفوس الناس فى كتب الأدب حتى اعتلّ وصار لايستطيع لاعتلاله أن يجاريهم، ولا أن يماشيهم لأنه لم يتعوّد من صغره أن يألف تلك الطبائع كى يهوّن عليه بعض المكروه منها؛ إذْ أنه كان كالمحجوز فى بيت أبيه، وكل هذه الأسباب مهدت وسائل كشفه مكاره النفس وصفاتها التى تغالط فيها.

وأمّا شوبنهور فقد رحل أجداده من هولانده إلى ألمانيا وصاروا من أهلها. وكان أبوه من التجار وقد أراد أن يكون ابنه تاجرًا مثله، وأرسله فى رحلة إلى فرنسا ثم إلى إنجلترا. وقد قارن الفتى بين حرية الفرنسيين فى حياتهم الاجتماعية ومغالاة الإنجليز فى ذلك الزمن فى مراعاة العرف والتقاليد. ولعلّ هذه المقارنة هيأت للفتى دراسة طبائع النفوس فى حالى تبذلها واحتشامها. وقد ورث عن أبيه حدّة فى الطبع، كما ورث عن أمه الميل إلى دراسة النفوس؛ إذ كانت أمه أديبة قصصية مفكرة. وهذا بالرغم من أنه لم يكن على وفاق معها، وقد شجعه جوته كبير شعراء وأدباء الألمان، كما شجعه فاجنر الموسيقى وغيرهما. وكان غزير الاطلاع لم يكتف بالآداب الأوربية، بل درس الفلسفة الشرقية، ولاسيما

الهندية، كما درس عقائد الهنود. وكان لايحجم عن البحث فى دخائل نفسه، كما يبحث دخائل نفوس الناس، وفيما يلى بعض نظرات هؤلاء المفكرين مع التعقيب عليها.

من نظرات لاروشفوكولد

١ ـ بعض الناس إذا مات كان إحساس الناس بافتقاده أعظم من إحساسهم بالحزن عليه، وبعضهم إذا مات كان إحساس الناس بالحزن عليه أعظم من إحساسهم بافتقاده. والحزن على هالك لايكون على قدر الانتفاع به، بل على قدر الائتناس به والراحة فى مخالطته. وفى هذا الباب استثناء ولا كالاستثناء، مثل ذلك حزن من لاعائل له غير المفقود، ومن انقطعت عنه الأسباب والحيل ووسائل كسب الرزق، وحزن أمثال هذا إنما يكون حزنًا على أنفسهم لا على المفقود إلاّ إذا كان مما يرجى للائتناس بعشرته ولطف أساليبه فى الحياة.

٢ ـ أكثر الناس لهم فضائل خفية لاتظهر إلا بالتجربة وفى حالات مرتبة لتلك الفضائل. فهم مثل الأعشاب الطبية، التى تظهر فضائل طبِّها بالتجربة وفى حالات خاصة ـ وهذا صحيح، ويجوز أن يقال فى كل إنسان فإنك قد تعرف إنسانًا لاخير فيه ولا فضل له فإذا عرضت له حالات غير منظورة رأيت له شيئاً من الفضل يدهشك فتلح فى إنكاره؛ لأنه لايتفق وما تعرف من طباعه التى جبل عليها، وما ذلك الإنكار إلاّ لأن المفكر ينسى أن النفس الإنسانية مستقر كل فضل وإن غاب، وقرارة كل نقص وإن رسب، وإنما يلبيها من هذا وذاك فى أكثر الأحايين ما اعتادته وسهل عليها إيراده وعمله.

٣ ـ قد يفخر الناس بعيوبهم ويجهرون بالمباهاة بها، كما يفخر شارب الخمر بقدرته على شرب الكثير منها، أو كما قد يفخر مواقع الشهوات بقدرته عليها وبما ظفر منها، أو كما قد يفخر الآخذ بالثأر أو الذى يدفع الشر بشر أعظم. وقد يفخر غير هؤلاء بعيوبهم إلاّ الحسود فإنه يخجل أن يفتخر بلؤم الحسد، فإذا افتخر حمل ماظهر منه على سبب آخر غير الحسد، فيحمله على الغضب للحق والغيرة على الصدق والصواب أو الانتصار للعدل الخ.

٤ ـ الاعتراف بالجميل المصنوع معك هو الدَّيْنُ الذى تدفعه كى تعود فتستدين فتجد من يقرضك. وليس ذلك الاعتراف من أجل أنك تراه فرضًا واجب الأداء، وفضيلة تحبها لذاتها من غير مأرب آخر. وهذا من السخر الكثير الذى نجده فى نظرات هذا المفكر. ولك أن ترفض هذا الرأى فى حالات. ولكن ينبغى لك الاعتراف بأنه يصدق فى أكثر الناس؛ لأن النفس طبعت على الأثرة، وهى تتخلى عن أثرتها إذا تخلت؛ لأنها تجد أو تأمل أن تجد مسرة ونفعاً، والمسرة نفع أيضاً. ولعله يعنى أداء ما يتطلبه الاعتراف بالجميل؛ إذ أن بعض الناس قد يعترف بجميل لم يصْنَع معه رغبة فى الحث عليه واستعجاله وتَصَيُّدًا لأوجه الخير من الناس.

٥ ـ بعض فضل أهل الفضل ممجوج ثقيل، كما أن عيوب بعض الناس ونقائصهم قد تستملح وتستلطف فتغتفر؛ وما ذلك إلاَّ لأن ظاهر المرء مفضَّل لدى الناس على حقيقته، وأسلوبه فى ملاطفتهم ومعاشرتهم مُقَدَّم على فضله.

٦ ـ لولا مخادعة الناس بعضهم بعضًا ما استطاع الناس أن يعاشر بعضهم بعضًا. وهذا صحيح. ومن أجل ذلك قد يكره الناس من لاينخدع لهم بلباقة أو يدعى الانخداع فى أمور كثيرة. هذا إلاَّ إذا كان انخداعه دليلاً على البلاهة، فيرون أنه لافضل له فى ذلك الانخداع، وأنه خليق بالهزء والاحتقار.

٧ ـ بعض الناس لاتظهر مهارتهم ولايظهر فضلهم إلاَّ إذا اقتصروا على قول الأقوال التافهة بأسلوب لبق، وإلاَّ إذا اقتصروا على عمل من الأعمال الهينة بأناقة محبوبة تُغْنى عن مطالبتهم بما هو فوق ذلك. ومن أجل صحة هذا الرأى قد تتعجب لنجاح أناس فى الحياة نجاحًا لايتفق مع عظم قدره وقلة ما يعرفون. أما قول الناس إن الخيبة فى الأمر العظيم أعظم من النجاح فى الأمر الهين، فقد يكون صحيحاً مشجعًا على محاولة عظائم الأمور، ولكن أكثر الناس يهمهم النجاح فى الحياة، ولا يستطيعون أن يسيغوا الخيبة.

٨ ـ قد يفعل الناس الخير. رغبة فى التستر وراءه كى يعملوا الشر آمنين. فليس عملهم الخير فى هذه الحالات من حبهم للخير. وهذا سخر لاذع، ولكنه حقيقة مشهودة.

٩ ـ الكسل والكبْر يحملان أكثر الناس على الميل إلى اعتقاد النقص في غيرهم من غير بحث أو دليل ـ وهناك أسباب أخرى منها أن الناس ترى أن ما ينقص من قدر غيرهم يزيد فى قدرهم. ومنها معرفتهم أن النقص شامل للنفوس البشرية كلها محتمل فيها، وبين الاحتمال والحقيقة وبين الجواز والوقوع خطوة فى نظرهم لاتكلفهم تعبًا ولا نصبًا. ومن الأسباب أيضًا أن الناس من قديم الزمن كانت خطتهم نقل نقصهم إلى نفوس غيرهم بل إلى حيوان أو جماد إذا لم يكن إنسانًا. وكانت لهذا النقل شعائر ورسوم عند البدائيين، وقد وصفها سيجموند فرويد فى كتاب الطوطم والطابو أو المقدَّس والمحرَّم.

١٠ـ إذا اعترف إنسان بخطئه فكثيرًا مايكون ذلك رغبة فى إصلاح ضرر أصابه من ذلك الخطأ ونيل إعجاب الناس، لاحبا للصواب واقتناعًا به أو قد تقنعه المنفعة المرجوة، وإلاّ بقى على عماه لايدرك وجه الخطأ، ولايستطيع أن يقنعه دليل منطقى. ومما يسهل هذه الغفلة عن الخطأ النفسى أن النفس كما قال سيجموند فرويد فى كتاب العلل النفسية فى الحياة اليومية: تستطيع أن تنسى ما ترى نسيانه من أمرها زينًا، فإذا لم يكن سبيل إلى ذلك النسيان ورأت فى الاعتراف بالخطأ فضلاً ونفعاً لدى الناس وإعجابًا، أقدمت على الاعتراف بالخطأ مطمئنة.

١١ـ بعض العظماء ليس من المُسْتطاع الإعجاب بعظمتهم إلاّ على بعد، كالصور الفنية قد لايستطاع إدراك جمالها الفنى إلاّ إذا ابتعدت عنها. وهذا تشبيه بديع؛ لأن دقائق الألوان والخطوط وتفاصيلها قد تعوق عن إدراك القدرة الفنية التى بها استطاع الراسم رسمها، ومن جهة أخرى يستطاع تشبيه جمال هذه العظمة على بعد بجمال المناظر الطبيعية، فإنك قد ترى وأنت على ظهر سفينة جزيرة كأنها جنة غناء فيحاء، فإذا نزلت إلى البر وجدت الذباب والأقذار والوحل وماهو أشد على النفس من ذلك. والظاهر أن مؤلفى كتب سير العظماء والمشهورين فى هذا العصر يخالفون هذا الرأى، ويرون أنه يستعصى إدراك عمل العظيم وتمام فهمه إلاّ إذا عرض فى مباذله أو نقائصه عرضًا تاما، فهم يحاولون الوصول إلى أعماق نفسه ووعيه الباطن، متناسين وصف سيجموند فرويد للوعى الباطن، ولعلّ فى علمهم هذا أيضًا شيئًا من الحسد والانتقام من غير أن يشعروا

به كحسد القبائل البدائية التى فى كتاب الطوطم والطابو، والأقوام الذين كانوا فى محفل تقديس ملكهم الجديد يربئون به أن يمسَّ بأيديهم لأنه مقدس، فكانوا يمسونه بأطراف قضبان، لكن هذا المسَّ المقدس كان يتحول من غير أن يفطنوا إلى ضرب قد يُؤدِى بحياة الملك حسدًا له على منزلته وما بلغ من جلالة المُلْك.

ومن نظرات ليوباردى مايلى:

١ ـ المخادع الماهر هو الذى لايظن أن كل الناس يسهل خداعهم على كل حال، بل يعرف أن من الناس من يتظاهر بالانخداع حتى يعرف غاية المخادع ويكشف أمره. أما المخادع غير اللَّبِق فإنه يستسهل خداع الناس، فلا يتخذ أهبته لإتقان الخداع. ومن أجل ذلك كثيرًا ما يكون المخادع مخدوعًا. وهذا صحيح ومن أجل ذلك قد يكون خداع الرجل الأبله مضحكًا وخداع الساذج مكشوفًا لجميع الناس إلاّ لصاحبه، فهو وحده المخدوع به. على أن للمسألة وجهًا آخر، وهو أن نجاح المخادع غير موقوف على مهارته وسذاجة الناس فحسب، بل على رغبة الناس فى أن ينخدعوا. وهذه الرغبة تكون لأسباب متعددة، فالغرور قد يؤدى بصاحبه إلى احتقار كفاية المخادع، فلايراه ينهض له بخداع متقن. واعتقاد الصدق وسلامة النية فى المخادع قد يعمى عن خداعه. والرغبة فى الائتناس بالمخادع قد تسهل له إتقان خداعه. والفائدة المرجوة منه قد تذهب بحذر المحاذر منه. ومن أجل هذه الأسباب وغيرها قد يخدع المرء من هو أذكى منه، وقد يخيب الذكى اللبق فى خداع من هو أقل منه فطنة.

٢ ـ كثير من الناس يسيئون إليك، ثم يأبون أن تقابل الإساءة بمثلها. وهذا شائع حتى إن بعضهم ينسى أساءته إليك ويرى من اللؤم أن تتذكرها، ومن النذالة أن تتألم بسببها، ومن الحقد ألا تقبلها بصدر رحب. فإذا لم تفعل عد المسىء نفسه مُسَاءً إليه، وهذا الطبع من وسائل الناس ومغالطاتهم فى أمور الحياة حتى يظفروا بما يشاءون.

٣ ـ بعض الناس يعيشون طول حياتهم وهم معروفون بالنبل والكرم والشرف؛ وذلك لأنهم لم يقابلهم فى حياتهم مايضطرهم إلى أن يتخلوا عن نبلهم وكرمهم وشرفهم، ولكنهم لو أحرجوا وأُحْوِجوا إلى ذلك التخلى

لاستطاعوا أن يبذوا الأوغاد واللؤماء فى لؤمهم. فهؤلاء نبلاء النفوس؛ لأنهم ليسوا فى حاجة إلى أن يكونوا لؤماء، وهذا الرأى يذكرنا قول البحترى:

إذا أحرجتَ ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللئام

٤ ـ عرفت طفلاً كان يقول إذا لم تجب أمه طلبه وإذا منعته من شىء: «آه، ماما الآن تحب الخبث والعناد. أو ماما مولعة بالشر» ولو فطن الناس إلى أحكامهم التى يحكمون بها على جيرانهم وأصدقائهم وأعدائهم لوجدوا أنها من هذا القبيل فإذا مَدَحَنَا إنسان واسترضانا وكنا نعده قبل ذلك وغداً، عدنا نقول: إنه ليس بوغد إلى الحد الذى كنا نظن أو أنه عرف الحق فرجع إليه، والرجوع إلى الحق فضيلة فهو من أهل الفضيلة، إلى آخر مايكون من أمثال ذلك.

٥ ـ إن صاحب النقص لايكون خليقًا بسخر الناس منه والزراية عليه ومبالغتهم فى ذلك إلاّ إذا بالغ فى تكلف ضده، كالشيخ الذى يتكلف أخلاق الغلمان وطباعهم وعاداتهم وهيئتهم. أو كالفقير الذى يحاكى الأغنياء، أو كالجاهل الذى يظهر بمظهر العالم المتكلم، أو كالريفى الذى يحاول أن يقنع مجالسه أنه متقن عادات أهل الحصر وأنه منهم حذوك النعل بالنعل. وهذا يصدق أيضًا فى تكلف إخفاء العيوب الجثمانية بما لايخفيها بل يزيدها وضوحًا وينم عنها.

٦ ـ كثير من الناس يريدون أن يكسبوا الشهرة بعمل الخير من غير كلفة أو مئونة. ومن أجل ذلك قد يعرضون أن يصنعوا الخير لإنسان اعتماداً على أن تعففه أو زهده أو حياءه أو قناعته أو شيئاً من أمثال كل ذلك يمنعه من قبول ما يعرضون عليه من المعونة، فيكتفى بشكرهم وبمدحهم لدى الناس وأن يذيع أنهم من أهل الخير. فإذا خيب ظنهم وقبل معونتهم وورطهم بذلك القبول، تغير لونهم وتلجلجوا فى الحديث، وقد يضمرون له المقت والضغينة ثم يغيرون موضوع الحديث، وإنما مثل هؤلاء مثل من يدعون الناس إلى وليمة ولم يعدوا وليمة وليست عندهم مادتها، وإنما يختلفون عن أصحاب الوليمة الموهومة فى أن ذاك سعى إلى خير، وهذا إلى طعام.

٧ ـ من الغريب أنه فى أكثر لغات العالم يطلق الناس اللفظ الذى يدل على الفضيلة لما يدل على البلاهة، فتراهم يضحكون ويقولون: فلان رجل طيب ـ على نياته ـ وهم يريدون أنه أبله ـ أليس هذا مما يدل على اعتقادهم أن الطيبة وحب الخير وسلامة النية أدلة على البله، وأن عكس ذلك دليل على الفطنة، فهم يكشفون عن سريرتهم وسريرة الناس من حيث لايشعرون.

٨ ـ أفراد الناس فى الهيئة الاجتماعية مثل ذرات المادة فى الكون: كل ذرة تقاوم وتضغط على ما يليها من الذرات، فتؤثر بهذا الضغط المتسلسل فى الذرات البعيدة، وهذه تؤثر فيها بضغطها المتنقل المتسلسل، فإذا بطلت مقاومة ذرة فى مكان ما انجذبت جميع الذرات من كل ناحية إلى ذلك المكان، فتسحق الذرة التى بطلت مقاومتها، وتحل غيرها مكانها. وهكذا الناس فى الحياة.

٩ ـ إن من عاشر الناس واشترك فى حوادث حياتهم كثيراً مايرى فيها مالو كتب قصة عده القارئ مبالغة من نسج الخيال الجامح، وأبى أن يصدق أنها من حوادث حياتهم؛ ولذلك قيل إن الحياة قد تكون أغرب من الخيال، وقارئ تلك القصة قد يعدها نابية عن أصول الفن الذى يرخص فى الخيال المهذب القريب من المعقول، ويقول إنها تعدت الخيال القريب المعقول، وما هى إلاّ قطعة من الحياة. وهذا يدل على أن تناقض أخلاق النفس أكثر فى الواقع مما تظن. ومن أجل ذلك قال كاتب حديث وهو سمرست موام: إن مهارة القصصى فى تقليم الحقيقة وتنسيقها ونفى المبالغة فيها والتأليف بين المتناقضين تأليفًا يزيل وحشة الخلاف وشك الغرابة، ويفسر اجتماعهما، ويلطف من حماقات النفوس وفجاءاتها غير المألوفة.

ومن نظرات شوپنهور مايلى:

١ ـ كثيراً ما ينطق الإنسان بأقوال قد تضره معرفة الناس لها، ولكن قلما ينطق بما يجعله أهلاً للهزء والسخر. وهذا صحيح؛ لأن الإنسان بطبعه حيوان معجبٌ بنفسه. ولكنه قد يكون مغرمًا بالظهور بين الناس ـ وهذا نوع آخر من الإعجاب بالنفس ـ فيؤدى به حب الظهور إلى أن يجعل نفسه أضحوكة، إذا لم يجد سبيلاً آخر إلى الظهور.

٢ ـ قد يتألم المرء من ظلم وقع به أو إهانة صغيرة مقصودة كانت أم غير مقصودة أكثر من تألمه من مصائب القضاء والقدر؛ لأن مصائب القضاء والقدر عامة ولا إهانة فيها ولا استعلاء إنسان على إنسان. أما الظلم أو الإهانة فإنها دليل على ظهور إنسان على إنسان باللسان وحده أو بالقوة أو بالمكر والحيلة فتُشْعر بالمذلة والنقص وتدعو إلى التفكير فى الانتقام وتزيد حقيقة الإهانة والظلم فى الذهن حتى لاتطاق. وقد يقدم المرء على الانتقام حتى ولو كان فيه أضعاف أضعاف مافى ذلك الظلم أو الإهانة من المضرة. وقد يؤدى انتقامه إلى ضياع حياته وهو يردد قول شمشون (علىَّ وعلى أعدائى يارب) ثم هو قد لايلتذ الانتقام وإن فاز به، بل قد يجد له مرارة وحسرة.

٣ ـ كثيرًا ما يكون تجسس إنسان على إنسان لمعرفة أسراره سببه الحسد أو الملل والسأم. فهو قد يحسد إذ يعتقد أن إنسانًا نال من أطايب الحياة وملذاتها، أو مايعده المتجسس ملذات وأطايب أكثر مما ناله ذلك المتجسس، فيلاحقه ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله فى خلواته وجلواته، وكثيرًا ماتكون الضجة التى يدعى فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد.

٤ ـ فى بعض الأحايين نود أن يحدث أمر، ونود ألا يحدث وألا يكون، فتجتمع فى النفس رغبتان متناقضتان فى وقت واحد، فمثلاً إذا كان لابدّ أن نؤدى اختبارًا فى أمر من أمور الحياة كى نصير ظاهرين مسرورين فإن الرغبة فى الظفر والمسرة تغرينا بأن نود اقتراب موعد ذلك الاختبار، ولكن الخوف من الخيبة يغرينا أن نود لو تأخر موعد الاختبار، فإذا اتفق حدوث ما يؤخر ميعاده كأننا نحس بحسرة وأسف فمسرة لتجنب احتمال الخيبة مدة من الزمن، وأسف لتأخر ميعاد النجاح، والفوز بما نريد. وكثيرًا ما يتوهم الناس أن اجتماع الضدين فى النفس فى وقت واحد أمر محال وهو ليس كذلك، وقد فسّر سيجموند فرويد هذه الأحاسيس الثنائية المزدوجة فى كتاب الطوطم والطابو أى المقدس والمحرّم، ووصفها عند الأقوام البدائيين.

٥ ـ لايستطيع الإنسان أن يعرف مقدار ما فى نفسه من الصبر والجلد على تحمل الألم، ومن القدرة على العمل العظيم أو على مكافحة الخطوب إلاّ إذا

أتيحت له فرصة لاختبار نفسه، وقد تظهر فى بعض النفوس قوًى كانت كامنة، وكانت لا يعترف أحد لها بها حتى صاحب النفس قد تدهشه قواه الخفية إذا ظهرت، وإنما مثل الإنسان أمام نفسه مثل الناظر إلى بحيرة هادئة مصقولة كالمرآة ليس بها موج، فلايستطيع الرائى أن يدرس عظم أمواجها التى تحاول أن تهشم الصخور، وذلك إذا هبت عليها الأعاصير، وبعض من يخاف وقع الخطوب قادر على مجالدتها ومناهضتها، وقد يعجز بعض من يخافها كما قد يعجز بعض من يبدى شجاعة فى الأمور اليومية الصغيرة ولا تتعبُ حنجرته من وصف شجاعته. فإذا اختبرته الخطوب والمصائب ذلّ وضعف.

٦ ـ فى أكثر لغات العالم اصطلح الناس على أن الصفات الشائعة بينهم صفات احتقار، فيقولون هذا أمر «شائع وعمومى ومبتذل ومشترك ومطروق ومألوف ومعروف. ويقولون فلان من العامة ومن الدهماء إلى آخر ما هناك من المترادفات» وهذا الاصطلاح فى اللغات دليل واعتراف على أن الفضل غير شائع بينهم، بل يشذ به الآحاد، وأنهم إنما يشتركون فى النقص.

٧ ـ بُعْدُ مكان الشىء يصغّر من حجمه ويخفى معايبه، وهذا مثل العدسة التى تصغِّر أحجام الأشياء. أمّا العدسة التى تكبِّر الأحجام فإنها تكبّر ما خفى من العيوب. وماضى الحياة يتأثر ببعده حتى تصغر متاعبه وحتى تألف الذكرى حسناته وتتغاضى عن سيئاته. أمَّـا الزمن الحاضر فلا ميزة له من هذه الناحية؛ لأن الشىء الصغير يبدو كبيرًا إذا كان قريبًا حتى أنه قد يحجب عن النظر ماهو أكبر منه حجمًا وأبعد مكانًا، ومن أجل ذلك تبدو متاعب الحياة اليومية شاقة عظيمة خطيرة، فتشغلنا وتثير قلقنا وأحاسيسنا المختلفة إلى أعظم حدّ ودرجة. ولكن إذا حملها الزّمن فى تيّاره وابتعدت عنا صارت حقيرة صغيرة، وقد ينساها الإنسان بعد أن شغلته وشقت عليه.

٨ ـ الإنسان يَتّبِع ما دُرِّب عليه من الصغر ويعتقده ويسير على نهجه. وكثير من الناس يدربون على لون واحد من ألوان فضيلة من الفضائل وينزهون أنفسهم عما يقابلها من الرذيلة فى شكل واحد دون جميع أشكالها ومعارضيها. فإن التجار من أصحاب الدكاكين ينزهون أنفسهم عن قطع الطريق وعن التلصص ليلاً

والسطو على المنازل للسرقة، ثم يحسبون أنهم قد جمعوا جميع أصناف النزاهة، فإذا اتهمت أحدهم بالسرقة شقّ عليه ذلك، مع أنه قد يغش المشترى فى الثمن أو صنف البضاعة، فيكون سارقًا من غير شك. ولكنه لايعد نفسه سارقًا، بل يرى أنه منزه عن السرقة. وقس على ذلك فضائل الناس ورذائلهم فى أحوال الحياة المختلفة. وشبيهٌ بذلك أن الرجل الموصوف بالشجاعة قد تكون شجاعته مقصورة على أمور دون أمور، وكذلك الجبن.

٩ ـ الأمل هو تحول الرغبة فى حدوث شىء إلى توقع حدوثه، حتى لقد يكون التوقع قريبًا منظوراً بالرغم من أن فرص احتمال الحدوث فرصة فى الألف أو فى مئات الآلاف، كما فى توقع الكسب من أوراق اليانصيب.

١٠ـ قد نرى أشجاراً على بعد فنعجب لجمالها، فإذا اقتربنا منها وجدناها شيئًا مألوفًا لا كما صورّت لنا. وهذا مثل سعادة أكثر الناس، فإنا نرى سعادة السعداء على بعد ونغبطهم عليها، فإذا اقتربنا منها وبحثناها زالت روعتها أو أكثر بهجتها؛ لما فى حياتهم من آلام ومتاعب وأمراض ومشكلات، فإن السعداء غير مُعْفَيْنَ من هذه الأمور بل يشاركون الناس فيها.

١١ ـ من أسباب خطئنا فى الحكم على الناس أننا نفرض وجود الصفات المتجانسة. فمثلاً نرى الكرم: فننسب إليهم النزاهة والشرف والنبل، وننسى أنها قد تجتمع، وقد لاتجتمع، ونرى الكذب: فننسب إليهم المكر والغش والاختلاس والسرقة، وقد لاتجتمع.

* * *

من نظرات لاروشفوكولد[1]

ـ ٢ ـ

١ ـ ماكانت الفضائل تستطيع أن تغزو لها مكانًا فى العالم كما غزت، لولا أنها كثيرًا ماتكون ممزوجة فى أنفس أصحابها بشيء من الإعجاب بالنفس يذيع دعوتها، ويعلن عن شأنها، ويكافح من أجلها وأجل أصحابها ـ وقد يختلط الإعجاب بالنفس بالإعجاب بتلك الفضائل، فهو وإن كان يهيئ لها جندًا وأعوانًا، فإنه كثيرًا ما ينقص من طهارتها، وكمال نبلها، أو قد يقضى عليها بما يدعو إليه الإعجاب بالنفس من شرور الأثرة. فإن المرء قد يرتكب الجرائم ويؤذى من خالفه؛ لأنه يعد مخالفه أو عدوه مخالفًا وعدوا للفضيلة ومناصره مناصرًا لها، وإن قلَّ حظه منها.

٢ ـ إذا أسفنا لنَبْوة مَنْ نَبا عنَّا فإننا قلما نأسف لافتقاد المتُعة بعقله وأدبه، بل كثيرًا ما نأسف لأننا فقدنا بفقده رمزًا يدل الناس على ثقة بعض الناس بنا وحسن رأيهم فى عشرتنا ورغبتهم فى أن يكونوا معنا ـ فنعتز بالأصدقاء فى أعين الناس ونزيد بهم قدرًا وجاهًا، أى أن الأسف لنَبْوة صديق أساسها الأثرة وحب النفس ـ ولكن هذا الأساس لايمنع من أن تكون الفضيلة فضيلة، فكثيرًا ما يختلط الإيثار بالأثرة فى النفس حتى عُدَّ مظهرًا من مظاهرها إذْ أن النفس تنشد فى الإيثار شيئًا يرضيها ويريحها، بالرغم مما تتكلفه بسببه، وما يرضيها ويريحها منفعة لها وإن كانت مطلبًا نبيلاً.

(١) المقتطف ـ الجزء الخامس من المجلد الحادى عشر بعد المئة ١من ديسمبر سنة ١٩٤٧م ـ ١٩من المحرم سنة ١٣٦٧ هـ.

٣ ـ فى بعض الحالات يخالف المرء منهاج حياته ونفسه كما يخالف غيره من الناس؛ وذلك لتعدد نزعات النفس المتغايرة الخفية، ولكن الناس كثيرًا ما يحكمون على المرء أنه يسير على وتيرة واحدة وطبع لايخالفه طبع، وصفة لا تغايرها صفة، وقلما يدركون تغيّره وخلافه لنفسه إلا إذا تغيروا له، وكان لهم مأرب فى تغيير حكمهم عليه، فإذا حدث ذلك ربما اتّهموه بمخادعتهم، وربما كانوا هم الذين خدعوا أنفسهم به. وسواء أفطنوا إلى أنهم هم الذين خدعوا أنفسهم أم لم يفطنوا فإنهم قد يحمّلونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعًا فيتضاعف ذنبه لديهم. وقد يكونون معذورين فى انخداعهم؛ لأن الحياة تفرض التجانس فى صفات النفس الواحدة؛ كى يسهل فهمها ومعاشرتها، حتى أن الصفات المتناقضة قد يكون بينها شىء من التشابه والانسجام والتجانس ما دامت فى النفس الواحدة.

٤ ـ فى بعض الأحايين يفضّل المرء أن يُحْرَمَ من أن يُنْسبَ إليه خير صنعه عن أن يعرف الناس الأسباب الحقيقية التى دعته إلى عمل ذلك الخير، فيظهر من الأسباب غيرما يبطن.

٥ ـ لعلَّ أعظم النجاح فى المهارة التى بها يقنع الماهر الناس أنهم لايستطيعون ضرره من غير أن يصيبهم ضرر فيهابونه ويتجنبون أذاه، وقد يسعون فيما ينفعه هيبة واتقاءً لشره ـ ولكن لايستطيع كل إنسان إقناع الناس على هذه الطريقة، بل إنها قد تكون عاقبتها وخيمة لمن لايتقنها ومن لايعرف أساليبها ودهاءها ومستلزماتها؛ لأنه إذا خاب ولم يقنعهم أو إذا رَأوا أنّهم يستطيعون أن يقضوا عليه وعلى وسائله بأن يبادروه بالعداء بادروه به وحاولوا القضاء عليه، وقد يفعلون؛ فإذًا ليس من الكياسة أن يَحسب المرء إظهاره العداء للناس أو تهديدهم كافيًا لنيل احترامهم وهيبتهم إياه.

٦ ـ من العيوب ما يمتزج بفضائل بعض الناس كما تمتزج العقاقير السامة فى الأدوية بمقادير لاتسم، على أنه لو حاول المرء وتعمد مزج فضله بعيوبه السامة قضى على فضله وفضيلته. إلاَّ أن الحياة نفسها قد تخرج من الشر خيرًا، كما أن بعض الخير قد يكون من عواقبه الشر.

٧ ـ من الصعب أن يحب إنسان إنسانًا تجرد من كل دواعى الاحترام. ومن الصعب أن يحب إنسان إنسانًا بذَّهُ وشآهُ. فالنفس تأبى فى أكثر الأحايين أن تحب من تجرد من كل دواعى الاحترام ومؤهلاته. ولكن أثرتها تأبى أن تحب من تستصغر أمرها وتزدرى شأنها عند استجلاء عظمته وعلو شأنه وإن كانت تحترمه سرًا أو علانية، ولكن الحالات الشاذة قد توجد فى الأمرين.

٨ ـ من الصعب أن تحترم النفس من لاخير له ولا شر.

٩ ـ كثيرٌ من الناس عدُّوا من العظماء بالرغم من شرهم الكثير ـ وهذا يذكرنا قول هنرى هين الشاعر الألمانى «إن شجرة الإنسانية قلّما تذكِّر بالزارع الذى سقاها ورعاها، وإنما تذكِّر بالعادى الذى حفر اسمه على جذعها بمديته» ـ نعم إن سيرَ العظماء الذين شكلوا حوادث التاريخ والأمم ونشروا الحضارات كان يمازجها شر كثيْر مُسْرف، وهذا مشاهد فى حياة أمثال الإسكندر المقدونى ويوليوس قيصر، ونابليون بونابرت؛ ولكن إذا كان الناس فى بعض البيئات يرفعون المجرمين الذين يعبثون بالأمن إلى مراتب البطولة، فلا غرو أن يفعل الناس ذلك مع من صهروا الناس بنار حروبهم وأنزلوا بهم شرا كثيرًا إذا كانت عاقبة ذلك نشر الحضارات والآراء.

١٠ـ إن العظماء لايمتازون عن غيرهم من الناس بعظم فضائلهم، وإنما يمتازون عنهم بعظم ما يعملون وما يقولون ـ وهذه النظرة تفسِّر السابقة، وليس معناها أن العظماء أقل فضائل، وإنما يعنى أن الناس تتوقع خلوّهم من النقص خلوا تاما بسبب ما يبهرهم من آيات عظمتهم، أو أنهم يريدون توريطهم بمطالبتهم بتلك العصمة، أوْ أنّ بروزهم مما يبرز نقصهم، أو أن ما يزاولون من عمل الخير ربما جرَّ شرا ونقصًا.

من نظرات ليوباردى

١ ـ المكر ـ وهو من جهود العقل والذكاء ـ قد يلجأ إليه الماكر كى يُخفى نقص عقله وذكائه، وذكاء المكر هذا كثيرًا مايلجأ إليه الناس فى البيئات التى حال فساد الحكام فيها دهرًا طويلاً دون تعهد العقل بالتربية والتثقيف، فترى فيهم

الجهل وقلّة النّمو الفكرى والسذاجة وشيئًا من الغباء، ومع ذلك يرى أيضًا نوعًا من ذكاء المكر تعوضهم به الحياة عما فقدوه.

٢ ـ فى بعض البيئات التى بين الحضارة والهمجية إذا كان الرجل فقيرًا جدا احتقره فى سريرتهم مَن هم أحسن منه حالاً من الناس، حتّى يكاد يسقط وينزل فى نظرهم عن مرتبة الإنسان، وإذا كان غنيا لم يكنْ آمنًا على حياته بسبب الحسد والرغبة فيما عنده ـ وهذا صحيح فى البيئات التى يثرى فيها المرء باستخدام قوته أو احتياله أو سلاحه ويفاخر باستخدامها جميعًا، وفى هذه البيئات يحتقر الناس من يجبن عن استخدام القوة، أو السلاح أو الحيلة لدفع عادية الفقر الشديد، وكما يحتقرون مثل هذا الفقير فإنهم يجلون المجرم العابث بالأمن حتّى أنهم قد يلبسونه صفات البطولة والعظمة، وكثيرًا ماتتم هذه الصفات حيث لايجد المرء فرصة لنيل مايستحق بسبب المحاباة والظلم والرشوة واحتيال الحكام لتسخير أداة الحكم فى أغراضهم. وقد تكون هذه الصفات بسبب آثار حكم مضى، وعهد سابق وأحوال فى الحكم انقضت. وقد يكون العهد السابق والحكم الغابر قد خلف فى نفوس الحكام والمحكومين خصالاً مستعصية باقية.

٣ ـ فى بعض الأحايين يمدحنا مادح بسبب أعمال أو صفات طالما ذممناها فى غيرنا، فنسرع إلى مدح تلك الأعمال والصفات ـ ويحجم المرء عن المآثم والنقائص إذا خاف لوم الناس أو بغضهم أو ذمهم أو عقابهم، فإذا وجدهم يمدحون تلك المآثم والنقائص ويحبذونها ويزينونها أقدم عليها غير هياب ولا وجل، وهذا لا يمنعه من مؤاخذة غيره على مايفعل مثله إذا وجد لنفسه فائدةً، ولكنه يحاول أن يفرق بين عمله وعمل غيره، وإن لم يكن بينهما فرق.

٤ ـ أكثر ذوى الفضل كانوا على بساطة فى السلوك والعادات، ولكن من الغريب أن الناس تعد تلك البساطة دليلاً على قلّة الفضل والعقل ـ وذلك إما لأن تلك البساطة تشابه فى أذهانهم صفات الطفولة أو البلاهة، وإما لأن البساطة تنافى التكلف لهم الذى يُغرى بالظهور بالمظهر الذى يرضى رغباتهم وفوائدهم،

وهذا التكلف لهم، منبعُه مكرُ اللباقة الذى يعدونه أعظم مظاهر العقل ومزاياه، لأنه يحوطهم بما يشاءون، وكل هذا التكلف قد يخالف بساطة العظماء، ومن أجل ذلك يعدها الناس نقصًا فى الفضل والعقل.

٥ ـ مهما بلغ المرء من اشمئزازه من الدنيا وأحوالها بعد اختبارها، فإنها لو أومضت له وابتسمت ودعته إليها لبّاها وصالحها وابتسم لها بعد العبوس ورجع إلى الائتناس بها ولو بعض الرجوع، وكذلك حاله مع من يتودد إليه، ممن اختبرهم وساء رأيه فيهم، فإذا لم يعد لعشرتهم إذا تودوا له قلّ سوء رأيه فيهم.

٦ ـ يحسب المرء أنه إذا خاب، حزن أصدقاؤه ومعاشروه لخيبته، وإذا نجح فرحوا بنجاحه، ولو كُشفَ له عن مكنون سرّهم لوجدَ فيه عكسَ ذلك فى كثير من الأحايين ـ أو على الأقل يجد بجانب الأسف لخيبته شعورًا بالمسرَّة، يخالطه مخالطة النقيض للنقيض وبجانب السرور لنجاحه شعورًا بالامتعاض والاستخذاء يناقضه، ولكنه يخالطه، وقد يجد ذلك حتّى عند أقاربه وعند مَن ينتفع بنجاحه ويخسر بخيبته من الناس؛ لأن النفس لاتستطيع أن تتغلّب على أثرتها كل التغلب وإن تغلبت على بعضها.

٧ ـ أكثر الناس لايخجلون من الأذى الذى يصنعونه للناس، وإنما يخجلون من الأذى الذى يصْنعه بهم غيرهم؛ لأنه ينقص من أقدارهم لدى أنفسهم ـ أما إذا خشى المرء أن يخجل إذا ظلم غيره فإنه يعمل على أن يُشْرك الناس فى ظلم المظلوم، فإذا نجح فى حمل الناس على مشاركته فى ظلم المظلوم أمِن من الخجل ومن تأنيب الضمير، ولقد كان الطغاة قديمًا يتخذون من الناس رجلاً يكون أداةً لتنفيذ ظلمهم، حتىّ إذا لم يَعُدْ صالحاً لتنْفيذه قضوْا عليه واتخذوا غيره، وبذلك ينالون أغراضهم كما ينالون حمد الناس إذا بطشوا بأداة ظلمهم.

٨ ـ الدنيا كالمرأة الجميلة المعشوقة لاينال الفتى لديها حظوة بالخجل والحياء فمن أراد أن يعلو حظّه، وجب عليه أن يؤَدِّع الحياء، وأن يكون لسانه بُوقًا يدعو الناس إلى الاعتراف بمزاياه الحقيقية أو المزعومة، أو أن يجد أناساً لهم رغبة

وفائدة فى أن يكونوا أبواقًا له، أما إذا انتظر حتى بسرع الناس للبحث عن فضله وإعلانه فإنه لن يَرى إلاّ مَن يُسْرِعُ إلى إخفائه.

٩ ـ لو حُوسب كلّ إنسان على مايقوله فى غيبة أصدقائه لما رضىَ أن يقولوا فيه مثل ما قال فيهم ـ فانّه مهما كان مخلصاً لهم لايسلم لسانهُ من سقطات فى غيبتهم لا تُرضيهم. وهو ـ بالرغم من ذلك ـ يُدْهَش إذا بلغه أنّ أحدهم قال فيه مثل ما قال فيهم، ويَعُدُّ نفسه مظلومًا لايجدُ جزاءَ إخلاصه وسلامته لهم فى غيبتهم.

١٠ـ قلما يكون البعيد عن الناس القليل الاختلاط بهم مُسيئاً الظن بهم، إلاَّ إذا كانت العزلة بعد المخالطة. فليس أسوأ رأى فى الناس مما يرسخُ فى النفس بقراءة الكتب التى تعلم سوء الطن بالناس، وإنما يكون هذا المقْتَبَسُ من الكتب كلامًا غير راسخ فى النفس؛ لأن العشرة هى التى تُفَطّن إلى سوء الرأى فى الناس، بسبب مرارة اختبارهم ـ وليس أشَد الناس سوء ظن بهم المعجب بنفسه وليس من الحتم اجتماع الإعجاب بالنفس وسوء الطن بالناس، فإننا قد نرى الرجل الشديد الإعجاب بنفسه عظيم الثقة بها، وثقته بنفسه قد تدعوه إلى حسن الظن والرأى، فيحسب أن الناس يعجبون بنفسه كما يُعْجَبُ، فينشرح صدره للعطف عليهم ولاسيما أن ذلك العطف يتفق وما فى نفسه من العظمة المزعومة التى تقضى أن يشمل الناس ببركات خيرها، وإذا ظهر منه غير ذلك من سوء الرأى فى الناس كان سحابة صيف عن قليل تتقشع.

من نظرات شوبنهور

١ ـ مما يجعل الإنسان غير مُبال تعاسة التعساء ولا آبه لها، أنه يعتقد فى نفسه العجز عن تحمل متاعب أكثر من متاعبه؛ ومن أجل ذلك إذا حسن حال إنسان بعد ضيق وبؤس فقد يعطف على أهل البؤس إمّا سروراً بنجاته من مثل حالهم وإمّا خشية أن يعاوِدَه البؤس فهو يرحم نفسه إذ يرحمهم، وأما الذين لم يصادفوا فى حياتهم بؤساً فإنهم كثيرًا ما ينصرفون عن العطف على أهل البؤس؛ لأنهم يرون أنفسهم بمأمن من غوائله، فلا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم مكانهم ـ على أنهم لو حاولوا وضع أنفسهم مكان أهل البؤس لنفروا من هذه المحاولة وتأففوا

وامتعضوا، ومن الجائز أن النعيم يضعفهم فيريدون أن يتجاهلوا مايؤذى سمعهم وبصرهم من مناظر البؤس، على أن الكفاح للخروج من الضيق، إذا نجح، قد يُعوّدُ بعض الناس برودة الطبع والقسوة؛ إذ يعدّ كل معاملة للناس قتالاً كالذى تعوَّده فى الكفاح، ويرى أن الحياة معركة لايظفر بالنصر فيها من يترك القتال كى يضمد جروح الجرحى؛ فينسيه هذا الرأى فائدة التعاون.

٢ ـ قد يكون سبب سعادة الإنسان ونجاحه فى الحياة أن له ابتسامة سارة يبتهج الرائى عند رؤيتها وينشرح صدره، فيعطف على صاحبها ويصنع له كل خير يريده. وقد يحسب الرائى بهجة هذه الابتسامة وحلاوتها من طيبة قلب صاحبها، واستقامته وسلامة صدره من الشر والأذى والأحقاد، وهى قد تكون كذلك، وقد لاتكون ـ إذْ ربما كانت من تكوين الوجه وشكل خلقْتِه، من غير حقيقة خلُقيَّة خلف ذلك التكوين، أو قد تكون من لباقة المخادع الماهر فى إخفاء سريرته ـ فينبغى لمن يغتر كل الاغترار بمثل هذه الابتسامة أن يتذكر قول شكسبير فى قصة هاملیت «قد يُكْثُر المرء من الابتسام وهو وغد».. ولكن من ذا الذى لايغبط صاحب هذه الابتسامة التى هى مفتاح القلوب والخير.

٣ ـ بعض ذوى الكفاية العظيمة فى أمور الحياة أو العبقرية لايحاولون إخفاء عيوبهم ولاسيما إذا كانت من الأخطاء أو العيوب التى يعدها الناس بالحق أو الباطل من لوازم تلك الكفاية العظيمة ودليلا عليها، وهم لايحاولون إخفاء عيوبهم أو أخطائهم لأنهم يرون أنهم قد أدَّوْا ثمنها من كفايتهم، وبالعكس نرى بعض من عدموا الكفاية النادرة وإن كانوا لابأس بهم يحاولون الظهور بمظهر العصمة ويتألمون، ويتملكهم الغيظ إذا ظهرت أخطاؤهم، ويحاولون أن يقنعوا الناس أنهم معصومون؛ وما ذلك إلاّ لأنهم ليس لهم فضل عظيم نادر من أجله تغتفر سيئاتهم ـ بالرغم من ميل الناس إلى التشفى من أهل الفضل بنسبة النقص إليهم ـ فمزية من لافضل له لا تتحقق لدى الناس إلاّ إذا خلا من الأخطاء، وقد تبالغ كل طائفة فى خطتها: فالطائفة الأولى فى رفع الكلفة، والطائفة الثانية فى استخدام كل وسيلة مهما كانت ظالمة لإثبات خلوها من العيوب ونقلها إلى

غيرها، وهناك طائفة ثالثة هى من أهل العجز يحاكى آحادها مايحسبون أنه من عيوب ذوى الكفاية؛ كى يُسلكوا فى زمرتهم ويُعدُّوا منهم.

٤ ـ من الجائز أن يحزن إنسان لموت خصم أو منافس أو عدوّ حزناً كثيراً إذا افتقد ذلك الإنسان خصمه الميت عند النجاح والظفر، فيود لو كان حيا كى يرى كيف ظفر فى الحياة بعده بالنجاح والسعادة ولم يظفر الميت، وهذا نوع من الحقد والتَّشفِّى من الميت يكون عند ذوى النفوس الدنيئة.

٥ ـ رغبة الإنسان فى أن يظل شهيراً بعد موته إنما هى مظهر من مظاهر حب هذه الحياة الدنيا.

٦ ـ إذا غالى الناس فى اعتناق رأى أو مبدأ أو مذهب فلابد أن يعودوا فى المغالاة إلى ضده حتى تستقر حياتهم بين الطرفين، وإنما مثلهم فى الذبذبة مثل رقاص الساعة.

٧ ـ كل فضيلة من الفضائل لها رذيلة من نوعها، وكل رذيلة لها فضيلة من نوعها، ومن أجل ذلك كثيراً مانخطئ فى الحكم على الناس، فقد تنسب إلى إنسان الفضيلة التى هى من نوع رذيلته أو الرذيلة التى هى من نوع فضيلته، فيظنّ الحازم المتأنى جباناً، والمقتصد المدبر بخيلاً، والمبذر المتلاف سخيا كريمًا، وسيئ الأدب صريحاً مستقيمًا والأحمق متحليًا بفضيلة الثقة بالنفس إلخ.

٨ ـ كثير ممن يجعلون عظم منزلة الإنسان فى العالم بسبب فضائله وعقله يشتطون فى القسوة فى الحكم إذا حكموا فى معاملة آحاد الناس إذْ يطالبونهم بما يناسب عظم منزلة الإنسان التى أساسها الفضائل والعقل؛ ولكنّ الفضائل كثيراً ما تخذل الإنسان ولا تؤاتيه، والعقل كثيراً ما يسخف أو يخطئ أو يسهو، فعظم منزلة الإنسان فى الكون بسبب ماهو معرض له فى حياته من آلام ومصائب وعذاب، وجهازه العصبى أرق من جهاز غيره من الحيوانات فهو مرهف الحس وله خيال يصور له آلامه وعقل يشغل بها؛ فإذا عاشرت إنسانًا لا تنظر إلى ما فى إرادته من شر وما فى عقله من قصور، ومافى آرائه من سخف، أو هوى فإنك إن فعلت ذلك كرهته أو احتقرته بل انظر إلى آلامه من واقع ومنظور وإلى

حاجاته وتعبه فى الحصول عليها وإلى بواعث القلق فى حياته فإن من يتحمل كل ذلك خليق بالعطف والمحبة والإعظام.

٩ ـ قصور العقل وسوء الخلق أمران مختلفان قد يجتمعان وقد لايجتمعان، ولكن قصور العقل قد يساعد على إنشاء رذائل صاحبه فتُحْسب أنها ناشئة منه. فالغباء كثيراً ما يُظهر دناءة صاحبه وشرّه بينما العاقل الحازم قد يدرك وسائل إخفاء شره ويستطيعها، فيحسب أنه خالٍ من الرذائل وأن العقل وحسن الخلق متلازمان أبدًا، كذلك سوء الطبع قد يستهوى صاحبه فيمنعه من إدراك الحقائق التى لولا سوء خلقه وطبعه لاتضحت لعقله، وقد تتضح فى حالات دون حالات.

١٠ـ كل حيوان لا يقسو إلاَّ ليأكل أو للدفاع عن نفسه. أما الإنسان فإنه قد يقسو من غير داع إلاَّ التلذذ بالقسوة. فهو كما سماه العلامة «جوبينو» صاحب كتاب «الأجناس البشرية»: «الحيوان الذى بَذّ كل الحيوانات فى خبث طبعه وشره»، وإذا وُجد حيوان يقتل أكثر مما يأكل، فما ذلك إلاّ كما يقول الفرنسيون فى أمثالهم: «عينه أكبر من معدته» ـ فالإنسان قد يقسو من غير فائدة لنفسه إلاَّ التلذذ بالقسوة، وقد يبلغ هذا التلذذ مرتبة الجنون، وكثيراً ما نسمع عن حوادث تعذيب ترتكبه حتى بعض الأسر المحترمة فى عهد الحضارة والثقافة. وكأن شهوة القسوة تفرز فى جسم الإنسان سُما زعافًا يتجمع كسمّ الأفعوان وينتهز أقل سبب وأصغر فرصة كى يُؤْذى به بعض الناس أو الحيوانات، ولعل التلذذ بقسوة الألفاظ المؤلمة والنظرات التى تنم عن القسوة وبالدسائس والمكائد كلها أنواع من التلذذ بالقسوة هى عِوَضٌ سيكولوجى عما كان يصنعه الإنسان فى أيام الهمجية بأعدائه وأسراه وعبيده تلذذاً بالقسوة لأجل القسوة سِرا وعلانية من غير رادع؛ ومن العجيب أن بعض المرضى بمرض نفسىّ أو عقلى يلتذون ألم قسوة غيرهم بهم، وما دام الإنسان يقتتل على الحياة وهو رقيق الجهاز العصبى وذو خيال وعقل فلا سبيل إلى محو طبع التلذذ بالقسوة كل المحو ـ إلاَّ إذا أسعف طبّ الغُدَد الحديث ـ وربما كان تلذذ الإنسان بالقسوة لشدة فرحه بأن الألم نال غيره ولم ينله. فهى نوع من الجبن أو وسيلة للنجاة من الخوف على النفس.

خاتمة آراء لاروشفوكولد مع الشرح[1]

ـ ٣ ـ

قبل أن ننتقل إلى غير من ذكرنا من المفكرين، وقبل أن نستعرض طرفًا من أخبار حياتهم وأن نتأمل فى المختار من أفكارهم، يحسن أن نذكر هذه الطائفة الأخيرة من نظرات لاروشفوكولد فعنه أخذ كثير من المفكرين والقصصيين. وهو يمتاز عن كتّاب هذا العصر والذين سبقوهم؛ إذْ أنه لايتصنع الابتكار فى الرأى تصنعًا، ولا يخلط الفكاهة بالجد خلطًا تضيع معه معالم الحقيقة. فإنك تقرأ كتب برنارد شو أو أوسكار وايلد فلا تعرف فى بعض الأحايين أين تنتهى الفكاهة وأين يبدأ الجد، أما لاروشفو كولد فإن فكاهته تفسر الحقيقة ولا تخفيها ولا تبعث مثل تلك الحيرة. كما اتضح مما ذكر فى المقالين السابقين، وكما هو ظاهر فى هذا المقال:ـ

١ ـ إنّ تَصَنُّع القدرة والكفاية فى أمور الحياة قد يعوق عن القدرة والكفاية، وهذا صحيح؛إذْ أن ما تلاقيه مظاهر التصنع من النجاح فى خداع الناس والانتفاع بهذا الخداع والتكسب به أمور قد تقنع صاحب التصنع فيقنع بالادعاء دون الحقيقة ويستريح إليه فلا يعانى الشدائد فى معالجة نفسه أو مايحسبها شدائد تعظم فى نظره وتهوله إذا حاول التُهدِّى إلى صفات القدرة الحقيقية والتماس أسبابها.

٢ ـ إن حسن النصيحة لايكفى لمعرفة الانتفاع بها، ورجاحتها لاترشد إلى القدرة على ذلك الانتفاع ولا تفيدها؛ إذ أن المرء محتاج إلى مقدرة على إتقان

(١) المقتطف ـ يناير سنه ١٩٤٨.

العمل والاهتداء إلى طرقه وأوقاته المناسبة كى يعمل حسب النصيحة الراجحة قدر احتياجه لما يحتاج إليه من المقدرة إذا عمل من غير نصيحة وبإرشاد نفسه.

٣ ـ إنّ فى المصائب نفاقًا كثيرًا مختلف الأسباب والأنواع: فمن الناس من يبكى ادعاءً للحنان والرحمة، ومنهم من يبكى كى ينال عطف الناس ورحمتهم وإشفاقهم عليه، وإن لم يكن متأثرًا فى سريرته بمصابه، ومنهم من يبكى إذا فقد قريبًا أو صديقًا كى لا يلومه الناس إذا لم يَبْكِ، ولولا خشية الملامة ما بكى.

٤ ـ إنَّ خداعنا لأنفسنا من غير أن نفطن إلى مخادعتنا أنفسنا أسهل من خداعنا الناس من غير أن يفطنوا إلى مخادعتنا لهم، ولكنا نظن عكس ذلك حقّاً.

٥ ـ لايرتاع من احتقار بعض الناس له، ولا يبيتُ مغيظًا مُحنَقًا إلا مَن رأى نفسه جديرًا بالاحتقار، أو مَن كان عنده ما يسميه علماء هذا العصر «مُركَّب النقص»، أو عقدة نفسية أو الشعور بالنقص، سواء أكان ذلك بسبب نقص نفسىّ أم نقص جثمانى، فإن ضعف الأعصاب قد يحلّ محل النقص النفسى فى إثارة هذا الغيظ، وإذا وثق المرء من نفسه فإنه قد يُرجَى منه التسامح فى الإهانة إذا لحقته أكثر كما يرُجى التسامح ممن فقد الثقة بالنفس إلا إذا صارَ الانتقام لكلّ إهانة شريعةَ الشرف والعرف، كما يكون فى البقاع التى يشيع فيها الثأر وتشيع فيها المبارزة فيضطر المرء إلى الانتقام من خوف الذم والاضطهاد بسوء الرأى فيه إلاَّ إذا علا شأنه، ولم يشكَّ أحد فى مقدرته، ولم يقدر على تَتَبُّعِه بالتعيير، فصفحُه صفحُ القادر الذى حظى بإقرار النّاس بقدرته وكرمه. وفى البقاع التى اختلَّ فيها الأمن لفساد الحكومات، ترى كلّ إنسان يدفعُ عن نفسه خشيةَ أن يتسامح فى الاعتداء القليل فيناله الكثير من شر الناس وظلمهم وتهجمهم إذ يُتّهم بالعجز، واستبداد الحاكم يُولّد الشعور بالنقص فى نفوس المحكومين، فيسرع كل منهم إلى الانتقام من جاره إذا حسب أن إهانة لحقته، إلاَّ إذا حال الاستبداد بينهم وبين الانتقام، وكثيرًا ما يُسرع الحقير إلى إهانةِ غيره، كى يلفت نفسه ويلفت الناس عن حقارة نفسه، وكى ينقل فى زعمه وخياله تلك الحقارة إلى غيره.

٦ ـ إننا فى بعض الأحايين نفضّل أن يخدعنا من نحبّ ونودّ عن أن يزول عنا ذلك الخداع فإننا به نعيش فى نعمة المحبة والإخلاص اللذين نتخيلهما فى نفس من نحب، فإذا زال عنا الخداع كان زواله نقمةً وتعاسة. وقد يَعرف المخدوع منا بنصف انتباهه أنه مخدوع، فيتغافل حتى يغفل، فيعيش فى نَعيم الانخداع.

٧ ـ لو كلَّف المرء نفسه من الجهد كى يصير إلى ما ينبغى ويحب أن يكون قدر مَا يكلّف نفسه من الجهد كى يُخفى ماهو عليه مما يريد إخفاءه لما احتاج إلى نفاق، إذ أن الجهد فى سبيل الرّياء قد يكون فيه من العناء والمشقة قدر مافى الجهد الذى يصير به إلى ماينبغى ويَحسُن.

٨ ـ إن مغالطة المرء الناس كى يخفى حقيقته عنهم مما يُساعده على إخفاء حقيقته عن نفسه سواءٌ أنجحت المغالطة أم لم تنجح، إذ أنها لو نجحت مغالطة المرء الناس كان نجاحها شافعًا يشفع لنفسه عند نفسه كى تخفى حقيقتها عن ذاتها، وكان نجاحها برهانًا على ما يريد المرء أن يقنع به نفسه، ودليلاً على ما يوهمها من أمرها، وإذا خابت مغالطته الناس، احتاج إلى الإمعان فى إخفاء حقيقته عن نفسه كى يتقن بذلك أساليب مغالطة الناس، وكى يعرف كيف يتجنب الخيبة فى مخادعتهم.

٩ ـ إننا نرتاح إلى رؤية من نتفضّل عليهم ونساعدهم ونبرهم أكثر من ارتياحنا إلى رؤية من يجودون علينا وينعمون إلاّ إذا خشينا أن يُورطنا الأولون حتى نجود بما لانود أن نجود به، وإذا خشينا أن تفلت من يدنا نعمة نرجوها عند الآخرين إذا ابتعدنا عنهم فينقلب الحال، أما إذا لم يكن هذا ولا ذاك فقولُ لاروشفوكولد هو الصواب؛ لأن رؤية من نجود عليهم تدعو إلى الزهو والارتياح والخيلاء والثقة بالنفس، ورؤية من يجودون علينا تدعو إلى استضعاف النفس والاستخذاء والشعور بالنقص والعجز.

١٠ـ كثيراً مايبقى الحسد حتى بعد زوال النعمة المحسودة ـ ولعلَّ سبب ذلك أن شدة الإحساس بالحسد لايستطاع إيقافها وانتهاؤها، كما لايستطاع إيقاف المندفع فى سيره إذا بطل الدفع، فيظل سائرًا بعد الدفع مدة، أو لعل السبب أن الحسود

لايغتفر لمن زالت نعمته تمتعه قديمًا بالنعيم الزائل، فيريد أن ينتقم منه كأنما بانتقامه بعد زوال النعيم يستخلص تلك المتعة الماضية واللذة الغابرة والسعادة الزائلة من لحمه ودمه حتى تكون كأن لم تكن، وحتى يندم المحسود على ابتهاجه بها، وقد يزداد الحاسد غيظاً إذا عجز عن أن يجعل ذلك النعيم الزائل كأن لم يكن.

١١ـ القدوة عدوى، وما من خير أو شر إلاّ وله قدرة وعدوى، فالافتداءُ بالخير إنما يكون للمنافسة ونيل الثواب أو للزهو ونيل إعجاب الناس، والاقتداء بالشر لأن النفس إنما يعوقها عن الشر فى كثير من الأحايين الخوف والحذر وتجنب الملامة والعقاب، فإذا لم تجد النفس ملامة ولا عقابًا بل وجدتْ مشجعاً ومحسنًا ورأتْ أن مواقعة الشر أمر شائع غير ملوم أقبلت على عمل الشر ومواقعته اقتداءً بمن يعمله، ومن أجل ذلك كثيرًا ما تنقلب المقاييس فى الأماكن والأزمنة المختلفة، لاسيّما فى عصور الثورات والانقلاب والتغير. ومع ذلك فهذه حقيقة مشاهدة فى الحياة اليومية؛ إذ يقبل الناس على الشر؛ لأنهم يجدون من يمدحه ويعده محمدة وخيرًا لا شرا، وقد يتباهون به من أجل ذلك.

١٢ـ كثيرًا ما يفخر الإنسان بعيوب ليست من عيوبه وبصفات ليست من نقائصه؛ لأنها بعيدة كل البعد عن عيوبه، فهى وإياها فى طرفى نقيض، وهى لبعدها عنُه تلفت الناس عن عيوبه وتعميهم عن نقائصه. ومن أمثال ذلك أن ذوى التردد والعجز والجبن كثيرًا ما يدّعون التهور والخرق والحمق والتسرع فى الاندفاع من غير تروّ؛ سترًا لترددهم وإحجامهم والذين يسهل انقيادهم يدّعون العناد والتصلب والإصرار على رأيهم، ويفتخرون بذلك إخفاءً لسهولة انقيادهم.

١٣ ـ من السهل أن يغتفر المرء لأصدقائه العيوب التي يرى أنّها لا تضره ولا تصيبه بسوء، وإنْ أصابتْ غيره من الناس، وهذا الغفران يكونُ مادام المرءُ ناظرًا إلى أصدقائه بعين الرضا، وكثيرًا ما يغتفر لهم خيانتهم أصدقاءهم مادام الغافر يرى أنه بمأمنْ من أن يخونوه؛ لأنه بزعمه عندهم فى منزلة أعز وأرفع ـ وقد يسخر ويضحك من المغدور به ويلتمس العذر لمن غدر به. أما إذا حاق به الغدر دونه بعد اطمئنان إلى الوفاء واستنامة إلى عزته ومنعته فإنه لايصفح للغادر كما فعل قديماً بل يسخط. ومصاحبة الرجل صاحب الشّر على مافى ذلك من خطر

إنما تكون لأسباب متعددةُ فبعضُ الناس يُلازمه كى يعرف شره ونيّته وما يبيّت فيتجنب بذلك ما يتوقّع من شره، وبعضهم يلازمه ويجاريه تَزَلُّفاً إليه واتقاءً لشره بالتزلف والتقرب، وبعضهم يتابعه كى ينتفع بشرّه وبعضهم يزامله لأنه يتمنى لنفسه فى سريرته جرأة على الشر ليست له، فمزاملته له إعجاب مستتر، وهذا لا يمنعُ من أن ينقلب عليه إذا انقلب الناس.

١٤ ـ يقول التعساء المحرومون: إنّ الحظ أعمى، ويقول السعداء أن الحظ مبصر، إذا كل من الطائفتين تدّعى الفضل: فالطائفة الأولى تعتقد أن الحظ لايستطيع لعماه رؤية فضلهم، والطائفة الثانية ترى أنّه رأى فضلهم فكافأهم بما هم جديرون به من الخيرات والسعادة.

١٥ ـ فى بعض الأحايين يشكو المرء من نفص بعض ملكات عقله كى يدفّع عن نفسه التهمة فى ملكات أعز وأرفع، ومثل ذلك أنه قد يشكو من ضَعف الذاكرة ولكنه لايشكو أبدًا من ضعف ملكته فى الحكم على الحقائق، مع أن الملكة الثانية قد تتأثر بضعف الذاكرة، وهذا لاينفى صدق قول «مونتانى» الفرنسى صاحب الرسائل المعروفة إذ قال: إن ملكة الحفظ والاستذكار قد تكون قادرة ولكنها مقرونة إلى ملكة ضعيفة فى الحكم على الحقائق.

١٦ ـ كثيرًا ماتنفذ أمور باسم الحب وتعملُ أعمال وتُقال أقوال ولا شأن للحب فى كل ذلك، ومثله مثل الدول التى كفت يد الحاكم ـ مثل دوق جمهورية البندقية ـ وغلت سلطته، ومع ذلك تجرى كل أمور الدولة باسمه.

١٧ ـ من الغريب أن المرء قد تكون له ذاكرة قوية، فيتذكر بها حوادث حياته الصغيرة التافهة، ولكن ذاكرته على قوتها لاتستطيع أن تعينه على أن يتذكر أنه حدث جليسه مرات عديدة بهذه الحوادث التافهة حتى صار الحديث مملولاً مكروهًا ـ وقد فسر فرويد هذا النسيان فى كتاب العلل النفسية فى الحياة اليومية، وأوضح أن النفس تستطيع أن تنسى عمدًا ما تريد نسيانه، وأن تدفع به إلى الوعى الباطن.

١٨ ـ لو استطاع مُستطيعٌ أن يمنع رجلاً من أن يملق نفسه وأن يمدحها سرا أو جهرًا، مباشرة أو غير مباشرة، وبالقول أو بالعمل، وبالخاطر الذى يخطر فى النفس أو فى الظاهر وفى الحقيقة أو فى الخيال ـ لكان هذا الإنسان الممنوع من تمليق نفسه بأية وسيلة أشقى الناس وأتعسهم وأكثرهم مللاً من الحياة.

١٩ ـ يعترف الناس أن الميول والنزعات النفسية لها أثر كبير فى تكوين آرائهم، ولكنهم قلما يدركون عظم هذا الأثر ـ وكثيرًا ما ينسونه إذا كانت لهم فائدة فى نسيانه، بل قد ينكرونه.

٢٠ ـ الأحاسيس والميول النفسية والصفات التى تتصف بها قد تُولِّد أضدادها، ومن أمثال ذلك أن الجبان قد يشجع من الخوف فيقبل مندفعاً بدل أن يفر إذا أحست نفسه أن فى الفرار ضررًا أشد، أو إذا حسبت ذلك أو إذا جُن جنونها من الخوف فاندفعت من غير تروّ، والخوف يُسبِّبُ الثبات أيضًا، والثبات من مظاهر الشجاعة والقدرة والعزيمة، ولكن المرء قد يخشى أن يتزحزح عن رأى أو مسلك أو مكان من الخوف فيظل ثابتًا عليه.

٢١ ـ أشد ما ينبغى أن يكون حذرنا من الأحاسيس والنزعات النفسية أن تُغَطِّى على الصواب إذا لبست لباس العقل والحكمة واتخذت منه أسبابًا وحججًا وأدلَّة؛ لأن العقل كثير الافتنان فى استنباط الحجج، وتمويهها تعزيزًا للميول النفسية والشهوات، وتسويغًا لما قد لايسوغ.

٢٢ ـ كما أن الفضل ثمرة فإنّ له موسمًا، والفضل الذى يكون فى غير موسمه كالفاكهة التى قد تأتى فى غير موسمها وموضعها، فإذا بعدت كل البعد عما يناسب مزاج ذلك الموْسم الغريب عنها كانت متهجنة غير مقبولة، فالبطيخ المُبَرد فى برد الشتاء لايستحب، وكذلك الفضل إذا جاء فى غير أوانه ومكانه، وكان عند من لا يَقْدُرُهُ يُستَهْجَنُ ويبرد.

٢٣ ـ الإعجاب بالنفس موجود فى كل نفس، ولكنه يختلف فى الطرق والوسائل التى يظهر بها ويشبع بها نهمته وقد يختفى زمنًا كى يتمكن ويحتال، وهو إذا لم يظهر بالقوة ظهر بالمكر والحيلة، وقد يظهر ويفوز بِطَلِبَتِهِ، حتّى

بالتمليق والتواضع فهو كما قال «لاروشفوكولد» دائمًا يُعَوِّض نفسه ويتخذ كل أهْبة ووسيلة كى لايخسر شيئًا وإن ادَّعى الخسارةَ والتَّخلّى عن الغرور والكبر، وكما أن الإنسان قدْ وُهب من ملكات الجسم ماينَاسبُ مطالبه وأعماله فقد وُهب من الكِبْر، ما يخفى به نقائصه عن نفسه، والأصل فى ذلك أن يكسبه ثقة بنفسه كى يستطيع أن يعيش، فإذا زاد عن حد الصلاح كان مُفسداً.

٢٤ ـ إن بعض صفات الحمد مثل الحواس، فمن لم يجربها ولم يعرفها فى حياته وولد خاليًا منها لايستطيع إدراك كنهها كالذى ولد أعمى يصعبُ عليه إدراك معانى البصر كلها، وكذلك من خَلاَ مِن بعضِ صفات الحمد لايستطيعُ أن يفهمها، وقد يُنكرها أو يحار فيها ويتهم أصحابها بالكذب والادعاء ـ والمراد بالخلو منها أنه لم يتعودها، ولم يعود نفسه ارتياد مواردها واتباع أحكامها.

٢٥ ـ إن الغريزة تعوض بعض التعويض ما يفقده المرء بسبب نقص حظه، فهى تُعلِّم الفقير أن يستفيد من المال القليل أكثر من استفادة مَن هو أغنى منه، وتجعل له المكر عوضًا من نقص العقل أو ضعف الجسم.

٢٦ ـ إن رغبتنا فيما نطلبه بالعقل رغبة ضعيفة إذا قيست برغبتنا فيما نطلبه بالنزعات النفسية إلاّ إذا كان العقل وهو يدّعى الاستقلال خادمًا للميل النفسى ومحتالاً له بذلك الادعاء كى لايفطن الناس إلى أنها رغبة الشهوات النفسية، لارغبة المنطق المستقل والعقل المسيطر عليها.

٢٧ ـ كثيراً مايكون الاغتياب باعثه الغرور أكثر من خبث النفس، فلا تأمن الرجل الموصوف بطيبة القلب أن يغتابك إذا كان مغروراً، وأىّ الناس يخلو من الغرور، ولكنا كثيراً ما يدهشنا الاغتياب إذا كان من رجل موصوف بطيبة القلب وباعثه الغرور.

٢٨ ـ إن السرور الذى نجده فى التحدث عن أنفسنا ينبغى أن يفطننا إلى أنه يسبّب الامتعاض لغيرنا، فإنّ غرور كل إنسان يجعل غرور غيره أمراً يكاد لايطاق ـ ومن الغريب أن كل إنسان يضجر من كثرة تحدث غيره عن نفسه، ولا يفطن إلى ضجر غيره من تحدثه عن نفسه.

٢٩ ـ أمراض النفس لها نكسة كأمراض الجسم، وقد نظن شفاءها فيما قد يكون هدنة نفسية أو فيما قد يكون مرضًا آخر، فالحب أو الطمع أو البغض إذا كان أحدهما مرضًا نفسيا وانتهى، فكثيرًا ما ينتهى إلى اختفاءٍ كاختفاء النار فى الرماد، أو إلى خمود كخمود البركان الذى ربما ثار بعد خموده ـ وهو إذا اختفى فقد يُسبِّب للنفس عقدة نفسية كالشعور بالنقص، ولعل هذا ما يعنيه بقوله: «إن النفس قد تنتقل من مرض إلى مرض».

٣٠ ـ إن الغرور كثيرًا ما يساعد المرء على تحمل آلام كثيرة، ولكنه قد لايساعد على تحمل آلام الغيرة والحسد والإحساس بالعار؛ لأنها آلام إذا استشرت أنقصت من ذلك الغرور الذى يراد للاستعانة به على تحملها أو أضعفته أو قضت عليه، فتقضى على العماد الذى يعتمد عليه لتحملها.

٣١ ـ إن الغرور كثيرًا ما يحمل المرء على عمل ما يخالف طبع نفس صاحبه وميلها، أما العقل فقلما يستطيع بالمحاجّة أن يحمله على ذلك ـ ومن أجل ذلك كثيرًا ما يعمل المرء أعمالاً فاضلة والحامل عليها غرور صاحبها لاطبعه وميل نفسه.

٣٢ ـ إن الخجل الذى ينشأ بسبب مدح لانستحقه قد يحملنا على عمل أعمال عظيمة ممدوحة وماكنّا نعملها لولا ذلك الخجل ـ أو الميل إلى الخجل أو الخوف من الخجل أو الحذر من معرفة الناس سببه، فيظن الناس أن هذه الأعمال صادرة عن طبع دائم، ويحسبون أنها وتيرة فى الخلق، وهى ليست كذلك.

* * *

لقد انتهينا مما اخترناه من آراء ليوباردى وشوبنهور ولاروشفوكولد، والقارئ يرى أن لاروشفوكولد إنّما استنبط ما استخرج من آراء فى النفس بأن جعل رائده أثرة النفس، فتتبع الأثرة فى مظاهرها من خير أو شر ومن مدح أو ذم، ورد ماخفى أو بعد عنها إلى أساسها، ولم ينكر للأثرة مظاهرها الفاضلة فى حياة الناس.

* * *